المقدمة

أحب «محمد علي» مصر.. فأحبته..

وأعطاها.. فأعطته..

وحلم لها بالخير كله..

فكان هو الصانع الحقيقي لتاريخها الحديث.. وكانت هي سُلم المجد بالنسبة إليه هو وأحفاده.. وأحفاد أحفاده على مدار قرن ونصف من الزمان.. أو تحديداً ١٤٨ عاماً من ١٨٠٥ إلى ١٩٥٢..

وقد فاقت إنجازات «محمد علي» كل إنجازات الرومان.. والإغريق.. والبيزنطيين.. والمماليك.. والعثمانيين أثناء فترات حكمهم لمصر.. وذلك لأنه كان يتميز عنهم جميعاً بشيئين..

أولهما: شدة طموحه..

وثانيهما - كما قلنا - وهو الأهم: شدة حبه لهذا البلد.

فحققَ لمصر الكثير.. وَحَدَها اجتماعياً.. شعر المصريون معه بكيانهم.. وجعلهم يشاركون بشتى طوائفهم في تحديث بلدهم.. والعمل على النهوض به معتمداً على موارده وخيراته الأساسية.. دون أن يمد يده لبلدٍ آخر يستدين منه.

لم يلجأ للبلدان الأخرى إلا من أجل سلاح العلم فقط.. ذلك السلاح الذي آمن «محمد علي» به وبأهميته فأرسل البعثات تلو البعثات لفرنسا وغيرها من الدول الأوروبية.. وفي نفس الوقت لم يُغلق أبواب مصر.. بل فتحها علي مصراعيها لكل وافدٍ.. وانفتح على العالم ليجلب خبراته لتطوير مصر.. ولأول مرة في عهده عرفت مصر ما يُسمى تاريخياً بالتعليم المنهجي المبنى على أُسس علمية.. فأنشأ المدارس المتخصصة ليلتحق خريجوها بالجيش.. وأوجد زراعات جديدة.. وبني المصانع.. واعتنى بالري.. وشيد القناطر الخيرية على النيل عند فرعي دمياط ورشيد..

واهتم أيضاً بالصناعة التي تطورت في عهده تطوراً كبيراً.. وأصبحت حركة التصنيع من أهم أعمدة الدولة حتى لا تعتمد مصر على جلب احتياجاتها من الخارج.. وحتى لا تقع تحت رحمة الدول الكبرى.. خاصةً أنه تنبه من البداية إلى كون معظم الخامات المستخدمة في الصناعة كانت موجودة بالفعل في مصر فضلاً عن توفر الثروة البشرية والتي تمد كل تلك الصناعات بالأيدي العاملة التي تحتاج إليها بوفرة..

ومع توالي تأسيس وبناء المصانع سواء الحربية أو غيرها اتبع «محمد علي» سياسة خاصة للنهوض بهذه المصانع بدأها أولاً باستقدام الخبراء والصُناع المَهَرَة من الدول الأوروبية لتخريج كوادر مصرية من رؤساء وعمال وصُناع وفنيين.. وبالتدريج بدأ عملية إحلال وإبدال للمصريين محل الأجانب..

وكان «محمد علي» يتكلم بحماس نادر عن عِظم شعوره بالحب لهذا البلد.. ولأهله.. وفي أحاديثه الخاصة والعامة كان يتباهى بهذا الحب.. ويذكره كثيراً.. وتروى كُتب التاريخ أنه ذات مرةً كان يتحدث مع أمير ألماني يُدعى «يوكلر موسكو» عندما قال له:

« يجب على أن أتغلب على صِعابٍ شديدة.. وفي سبيل هذا أشعر أنني مرتبط بهذا الوطن الجديد الذي اتخذته مقاماً لي.. ولن أعرف الراحة ولا السلام إلى أن ابعث هذه البلاد التي ظهرت لي طفلاً صغيراً مُعدماً.. عارٍ.. وحيد.. استسلم للنوم العميق منذ أجيال.. سأكون لها كل شيء.. سأكون أباها وأمها.. وسيدها وخادمها.. ومعلمها وقاضيها.. وكثيراً ما فكرت فيها وأنا متكئ على وسادتي سائلاً نفسي: هل أستطيع وحدي أن أتعهد بأمرها وكسوتها وتعليمها فتشبُ وتنمو كالطفل؟ إنني أشك في نجاحي.. بيد أنه بالرغم من كل صعب سيحقق الله آمالي.. وإليه أدين بالنجاح جلت قدرته.. أن العظمة في متناول جميع الأمم.. كما أن الظُفر مُحقق لكل الجيوش إذا وُجِدَ الرجل الذي يقودها ويعرف السبيل التي يسلكها»..

ولا شك أن محمد علي باشا كان رجلاً طموحًا إلى حد الهوس.. يحلم بتكوين إمبراطورية كبيرة على غِرار أقوى الدول الكبرى في التاريخ.. وكان صاحب توسعات وأفكار استعمارية لا تعرف حدوداً ولا يبالي بأي شيء يقف في طريق طموحاته..

فهل كان بكل تجربته - وكما تقول بعض الكتابات خاصةً الغربية - بأنه كان مجرد أداة تمكنت من خلالها الدول الأوروبية من استغلاله ونفخت في بوق طموحاته من أجل ضرب الدولة العثمانية وإضعاف الأمة الإسلامية.. وعندما رغب محمد علي في ضم بلاد الشام إليه.. هل كان كل هدفه فقط معاقبة والي عكا «عبد الله باشا الجزار»[1] الذي آوى التجار الفارين إليه من مصر إلى الشام والذين لجاءوا إليه هربًا من الضرائب الفادحة[2] التي فرضها عليهم محمد علي ورفض الجزار إعادتهم.. فأرسل محمد علي حملته البرية والبحرية إلى الشام بقيادة ولده الشهير أسد الحروب إبراهيم باشا.. ورحبت الدول الأوروبية بهذه الحملة ودعمتها وذلك من أجل ضرب عصفورين بحجر واحد زعزعة استقرار الخلافة العثمانية[3].. واستنزاف قوة محمد علي أولاً بأول؟

وعندها ارتجت الدول الأوروبية كلها من قوة وصعود نجم محمد علي بصورة لم يكونوا يتوقعونها.. خشيت أوروبا من عودة الروح لجسد الدولة العثمانية إذا تولى أمرها رجل قوي مثل محمد علي.. ولربما وقتها سيغيَّر محمد علي ولاءه

(١) عبد الله باشا هو غير أحمد باشا الجزار الذي كان والياً أيضاً على عكا خلال الحملة الفرنسية على مصر.

(٢) يذكر الرافعي في كتابه عصر محمد علي: (وفي السبت ٢٥ شهر رجب الفرد سنة ١٢٢٠ هـ - ١٩ أكتوبر ١٨٠٥ حضر أهل رشيد يتشكون إلى السيد عمر النقيب والمشايخ ويذكرون أن محمد علي باشا أرسل يطلب منهم أربعين ألف ريال فرانسة على ثلاثة عشر نفرًا من التجار بقائمة)

(٣) كما سنرى فيما بعد في موضعه من الكتاب اكتسح المصريون بقيادة إبراهيم باشا غزة ويافا والقدس ونابلس وحيفا.. فأرسل السلطان محمود الثاني جيشًا لرد المصريين.. فانتصر عليه إبراهيم باشا.. ثم فتح عكا ثم حلب.. ثم واصل المصريون تقدمهم وهم يكتسحون الجيوش العثمانية الواحد تلو الآخر.. حتى اجتاز إبراهيم باشا جبال طوروس واحتل أضنة وأصبحت أبواب إستانبول مفتوحة أمامه.

DAYS Of MOHAMMED ALi

ويجعل توجهاته إسلامية خاصةً أنه بطبعه ينزع للاستقلال ويعشق الزعامة لحد الهوس.. وكانت روسيا أكثر الدول تخوفًا من ذلك.. حتى أنها ورغم العداوة التاريخية والتقليدية والعميقة مع العثمانيين.. أرسلت ١٥ ألف جندي لحماية إستانبول.. فخافت إنجلترا وفرنسا من التدخل الروسي وطلبتا من الخليفة ضرورة التفاهم مع محمد علي.

وإذا كانت تجربة «محمد علي» نموذجاً استثنائياً..

فهل التجربة غير قابلة للتكرار..!!!

سؤال يدعونا لتحليل عناصر التجربة لنجد أننا أمام أجواء لا شك أنها يسرت نجاح محمد علي.. ربما كانت أجواءً استثنائية.. أبرزها كانت تتجسد فيما يلي:

- ظهور بعض التوازنات بين مختلف القوى المحلية والعالمية في القرن التاسع عشر.. وميل الدول الأوروبية الكبرى نحو سياسة الاستعمار والتوسع.. مثل الصراع بين فرنسا وإنجلترا لمد نفوذهما إلى الدول العربية؟
- ضعف الإمبراطورية العثمانية الذي أتاح لأحد وُلاتِها وهو «محمد علي» الاستقلال عنها وتكوين قوة ذاتية.

ودعم هذا الوضع الاستثنائي تمتع (محمد علي) على المستوى الشخصي بالمميزات التالية:

- طموح شديد للغاية..
- ذكاء أشد..
- قراءة واستفادة شديدة الموضوعية للواقع المحيط..
- حسن تخطيط واستشراف للمستقبل..
- قدرته الإقناعية في التأثير على مشايخ مصر وأعيانها..

فصعد «محمد علي» بفضل كل ذلك إلى قمة السلطة.. وسعى للتخلص من المماليك لتأثيث مملكة وراثية لعائلته.

ولا شك هناك جدلٌ تاريخيٌ معروفاً حول أهداف ما قام به محمد علي من تحديث.. والجدل يدور حول سؤال واحد: هل كان محمد علي يسعى لبناء جيش وطني قوى يسمح بالاستقلال عن السلطة العثمانية ومواجهة الأطماع الأوروبية من

أجل مصر.. أم إلى تأسيس أسرة مالكة قوية تعتمد على بلد مكتفياً ذاتياً يقاوم عوامل الضعف والانهيار في البلدان التابعة للإمبراطورية العثمانية.؟

يختلف المؤرخون حول هذه الأهداف.. خاصة وأن «محمد علي» الألباني الطموح جاء إلى مصر جنرالاً متواضعاً ضمن الجيش العثماني.. يطمح إلى بناء مملكة قوية يورثها أبناءه..

لكنهم يتفقون على أن النتائج الإيجابية لهذا التحديث المبكر في مجالات تطوير الجيش وقدراته التقنية وفي التعليم والصناعة والزراعة أثرت في بناء مصر الحديثة بقوة.. وكانت ملحوظة تماماً.

ونقول دائماً في التاريخ أن العبرة بنتائج الأفعال.. وليس بأسباب السعي إليها.. وسواء أكان محمد علي يسعى إلى مجدٍ شخصي.. أم إلى بناء دولةٍ عصرية.. فالأهم أن مصر عبرت خلال فترة حكمه عبر جسر الحضارة إلى مكانة متميزة.. وخرجت من فترة غفلة حضارية طويلة امتدت لبضعة قرون متتالية.. لتحتل مكانة متميزة على خريطة العالم آنذاك..

واستفادت مصر من تجربة التحديث التي خاضها محمد علي بشكل مباشر من منجزات الغرب الثقافية والعلمية والتقنية.. وأتاحت للبلاد استقلالاً.. واستقراراً اقتصادياً ذاتياً حتى لو لم يكتب له الصمود فيما بعد أمام مطامع القوى الاستعمارية الصاعدة في ذلك الزمن مثل إنجلترا وفرنسا والتكتل الأوروبي المناهض لأي نهضة في بلدان العالم العربي والإسلامي.. وهذا لم يكن بالطبع خطئاً من محمد علي بقدر ما كان خطأ من تلوه في الحكم.

ونعود للسؤال حول قدرتنا على إعادة وتكرار تجربة «محمد علي» ولكن نستأذن القارئ مؤقتاً لإرجاء الإجابة عن هذا السؤال إلى الخاتمة.. وبعد أن نكون قد عايشنا عن قرب أيام «محمد علي» وعشنا معه تجربته.. وأحلامه.. وشاهدنا عن قرب ملامح عبقريته..

والآن: هيا نعيش «أيام محمد علي»..

عصام عبد الفتاح
elbtrawy@yahoo.com

DAYS Of MOHAMMED ALi

تمهيد

مصر قبل «محمد علي»!!

بعد جلاء الفرنسيين نهائيًا عن مصر عاد ليطغى من جديد على ساحة الأحداث نعرات التنافس التي كانت تحكم العلاقة فيما بين المماليك وبعضهم البعض.. خاصةً بعد وفاة «مراد بك»[١] في إبريل عام ١٨٠١ فانحصرت المنافسة على الزعامة في ذلك الوقت بين «عثمان بك البرديسي»[٢] و«محمد بك الألفي»[٣] ولكن رغم ذلك عمل العثمانيون على تنصيب «محمد خسرو باشا»[٤] واليًا على مصر في يناير ١٨٠٢ولكنه فشل في مهمته حيث دار الصراع بين قواته والمماليك.. كما ثار عليه طائفة الأرناؤوط «أي الألبانيين» بقيادة «طاهر باشا» وفي ٦ مايو ١٨٠٣ أعلن العلماء والمشايخ اختيار طاهر باشا «قائم مقام» ولكنه لم يستمر طويلاً حيث تم اغتياله في مايو عام ١٨٠٣ على يد (الإنكشارية)[٥].

---

(١) مراد بك من مواليد ١٧٥٠ وهو من المماليك الجراكسة الأصل زعيم سلاح الفرسان والحاكم المشترك لمصر مع إبراهيم بك.. وبعد هزيمته على يد نابليون في معركة الأهرام.. فرّ إلى صعيد مصر.. ومن هناك شن حرب عصابات قصيرة ضد الحملة بقيادة دوزيه لمدة عام.. وفي عام ١٨٠٠ عقد مراد بك اتفاقية سلام مع كليبر.. ووافقت عليها حامية القاهرة.. وتوفي من الطاعون سنة ١٨٠١ أثناء رحلته هناك.

(٢) عثمان بك البرنيسي المرادي وسمي البرنيسي لأنه تولى كشوفية برديس بقبلي فعرف بذلك واشتهر به كان ظالمًا غشومًا طائشًا سيئ التدبير مرض ومات بمنفلوط ودفن هناك.

(٣) محمد بك الألفي هو أحد أمراء المماليك وهو الذي نازع «محمد علي» حكم في حروب عدة وكاد أن ينتصر وتعاون مع الإنجليز لتسهيل التخلص من «محمد علي» ولكنه توفي إثر مرض مفاجئ ألم به.

(٤) يُسمى في بعض المصادر التاريخية الصدر الأعظم.. وُلِدَ في شمال القوقاز عام ١٧٧٦م وقدم إلى تركيا صغيراً.. وعندما كبر تولى عدة وظائف في الدولة العثمانية وأصبح والياً على مصر في ١٣ جمادى الأول ١٢١٦ هـ / ١٨٠١ واستمر حتى ١٤ محرم ١٢١٨ هـ / ١٨٠٣م أي إلى ما بعد انسحاب وخروج الفرنسيين من مصر.. تولى مناصب أخرى ومنها منصب والي المورة ومنصب قائد البحرية العثمانية.. بعد انقضاء سلطنة السلطان محمود الثاني وتولي السلطان عبد المجيد الأول السلطنة العثمانية تم اختياره صدراً أعظم لوزارته في ٢٥ ربيع الثاني ١٢٥٥ هـ / ١٨٣٩م واستمر في منصبه حتى ٧ ربيع الثاني عام ١٢٥٧ هـ / ١٨٤١ وتوفي في عام ١٨٥٥م في مدينة تيكيرداج التركية.

(٥) لإنكشارية هي كلمة باللغة التركية تعني: (الجنود الجُدُد) وهي طائفة عسكرية من المُشاة العثمانيين كان لهم تنظيمهم الخاص.. وثكناتهم العسكرية وشاراتهم.. حتى أصبحوا أقوى فِرق الجيش العثماني وأكثرها نفوذاً.. وأصل الكلمة (ينيجاري) وتُكتب بالتركية (يكني جاري) وتم تحويرها كما اعتاد نطقها الأزهريون (إنكشاري).

DAYS Of MOHAMMED Ali

وحول عزل (خسرو باشا) يقول المؤرخ المصري عبد الرحمن الرافعي في كتابه (عصر محمد علي):

(ويوم الثلاثاء ١ شهر ذي الحجة الحرام سنة ١٢١٨ هـ - ١٣مارس ١٨٠٤م فيه تقلد علي أغا الشعراوي واليًا على مصر.. وفيه نهبوا بيت محمد أغا المحتسب.. وقبضوا عليه وحبسوه.. وفي ليلة الأربعاء ٢ شهر ذي الحجة الحرام سنة ١٢١٨ هـ - ١٤مارس ١٨٠٤ أنزلوا محمد باشا خسرو وإبراهيم باشا إلى بولاق وسفروهما إلى بحري ومعهما جماعة من العسكر وكانت ولايته شبيهة بولاية أحمد باشا الذي تولى بعد قتل طاهر باشا مدة يومٍ ونصف.. وكان قد اعتقد في نفسه رجوعه لولاية مصر حتى أنه لما نزل من القلعة إلى بيت محمد علي نظر إلى بيته من الشباك فرآه مُهدمًا مُخربًا.. فطلب في ذلك الوقت المهندسين وأمرهم بالبناء وذلك من وساوسه يقال إن السبب في سفره إخوة طاهر باشا فإنهم قد داخلهم غيظ شديد ورأى محمد علي نفرتهم وانقباضهم من ذلك وعلم أنه لا يستقيم حاله معهم وربما تولد بذلك شر فعجل بسفره وذهابه.. ومن الاتفاقات العجيبة أيضًا أن طاهر باشا لما غدر بمحمد باشا أقام بعده اثنين وعشرين يومًا وكذلك لما غدر المصريين بالألفي لم يقيموا بعد ذلك إلا مثل ذلك.. وفيه صعد عابدي بك أخو طاهر باشا بالقلعة وأقام بها..)

فتولى بعده «محمد علي» قيادة الحامية الألبانية في ١٨٠٣ وكانت مصر في حالة من الفوضى.. فرأى محمد علي أنه عليه التحالف مع «عثمان بك البرديسى» للتخلص من الحاكم العثماني الجديد «أحمد باشا» والزعيم المملوكي المنافس «محمد بك الألفي» وبالفعل تمكن محمد علي من بفضل هذا التحالف من طرد الوالي أحمد باشا بعد أن حكم يومًا واحدًا.

اختلاف محمد علي والبرديسي

وبدأت سلطة محمد علي تظهر في الميدان وبعد حوالي شهر اختلف محمد علي مع البرديسي الذي أحدثت فداحة ضرائبه ثورة في القاهرة.. وانتهز محمد علي

DAYS Of MOHAMMED ALi

هذه الفرصة لمصلحته.. فانضم إلى المشايخ.. وكسب عطف الشعب وثقة علمائه.. وأمر جنوده بمهاجمة المماليك بالقاهرة فخرجوا منها وذهبوا إلى الصعيد.. ونجح محمد علي بعد ذلك في تعيين «خورشيد باشا»[1] محافظ الإسكندرية والياً على مصر وكان خامس من تولى ولاية مصر في خلال سنتين.

عموماً استمرت الحرب بعد ذلك سجالاً بين المماليك وجنود الوالي.. ومحمد علي إلى أن ارتدوا عن القاهرة وانسحبوا مرةً ثانيةً إلى الصعيد.. وبعد مطاردة المماليك إلى الصعيد انهار التحالف القائم بين محمد علي وخورشيد..

كان طريقه صعباً

وفي هذه الفترة يهمنا التأكيد على أن طريق محمد علي لم يكن مفروشاً بالورود.. إنما كان مليئاً بالكثير من القلاقل.. لذا عمل محمد علي بكل دهائه وذكائه لينال تأيد العلماء وخاصة نقيب الأشراف السيد «عمر مكرم»[2].

وما أن علم العلماء بوصول فرمان يقضى بعودة الألبانيين ورؤسائهم إلى بلادهم حتى طلبوا من محمد علي البقاء في مصر لما عاهدوه فيه من العدل والاستقامة.. فقبل محمد علي ذلك.. بالرغم من مساعي خورشيد لإقصاء محمد علي عن مصر.

(١) خورشيد باشا حاكم وقائد عثماني.. حكم مصر أواخر مارس ١٨٠٤ ولم يكن مطمئناً لموقف محمد علي.. فأراد التخلص منه لكونه بالنسبة له مصدر خطر لاكتسابه ثقة الشعب فطلب خورشيد باشا من السلطان العثماني استدعاء فرق الألبان والأرناؤوط إلى اسطانبول.. ورفض محمد علي تنفيذ ذلك بتأييد من العلماء.. فطلب خورشيد من محمد علي التوجه إلى الصعيد لإبعاده عن القاهرة كما طلب من السلطان العثماني إرسال فرق عسكرية لتدعيم سلطة الحكم.. فأرسل له السلطان فرقاً عرفت بالدولاه قامت بأعمال نهب وسلب ضد الأهالي. غضب الشعب وزعماؤه وتوجهوا مع عمر مكرم إلي محمد علي لتوليته حكم مصر بشروطهم وغادر خورشيد باشا عام ١٨٠٥ متوجهاً إلى القصير.

(٢) ترجمة كاملة لعمر مكرم في فصل رجال حول محمد علي.

أحوال المصريين قبل تولى محمد علي

عزل خورشيد باشا

في يوم الاثنين ١٣ مايو أجمع العلماء على عزل خورشيد باشا وتعيين محمد علي والياً مكانه فامتنع محمد علي في بادئ الأمر حتى لا ينسب إليه أنه المحرض على هذه الثورة.. ولكن السيد عمر مكرم والشيخ «عبد الله الشرقاوي»[١] قلداه خُلعة الولاية.. فقبل محمد علي الشروط التي رفضها خورشيد من قبل.. كما أقر بالرجوع إلى هؤلاء الزعماء في شئون الدولة.. وبهذا.. ونزولاً عن إرادة زعماء الشعب أصبح «محمد علي» والياً على مصر في ١٣ مايو ١٨٠٥..

كيف كان يعاقب محمد علي المتمردين عليه؟

الإجابة عن هذا السؤال نحيلها لوصف الرافعي في كتابه.. حيث يقول:

(وفي ليلة الاثنين ٢٣ شهر جمادى الأولى شهر سنة ١٢٢٠ هـ - ١٩ أغسطس ١٨٠٥ م خرج عابدي بك بعساكر الأرناؤد برًا وبحرًا إلى جهة (طُره)[٢] فالتقى مع من بها من المصريين وكان بها إبراهيم بك الكبير وابنه مرزوق بك وأمراؤهم فقتل من عسكر الأرناؤد عدة كبيرة وولوا منهزمين وحضروا إلى مصر وغرق من مراكبهم مركبان في ليلة الثلاثاء..

وفي تلك الليلة الثلاثاء ٢٤ شهر جمادى الأولى سنة ١٢٢٠ هـ - ٢٠ أغسطس ١٨٠٥ م قتلوا المعتقلين ما عدا حسن شبكة ومعه اثنان قيل أنهم عملوا على

(١) هو الشيخ عبد الله بن حجازي بن إبراهيم الشرقاوي «من مواليد سنة ١١٥٠ هـ» وهو أحد مشايخ الأزهر الشريف في القرن الثالث عشر الهجري.. وُلِدَ بقرية الطويلة من قرى الشرقية بمصر عام ١١٥٠ هـ تعلم في الأزهر الشريف وتولى مشيخته عام ١٢٠٨ هـ. كانت له مواقف شجاعة أثناء الحملة الفرنسية على مصر.. قام محمد علي باشا بوضع الشيخ الشرقاوي تحت الإقامة الجبرية في محاولة منه للقضاء على نفوذ علماء الأزهر.. في أيامه تم إنشاء رواق الشراقوة بالأزهر.. له العديد من المؤلفات أشهرها: «التحفة البهية في طبقات الشافعية».. «تحفة الناظرين في من ولي مصر من السلاطين».. «حاشية على شرح التحرير» في فقه الشافعية... فتح المبدي شرح مختصر الزبيدي.. توفي الشيخ عبد الله الشرقاوي في القاهرة سنة ١٢٢٧ هـ.

(٢) هي ذاتها منطقة طرء الحالية.

أنفسهم ثلاثمائة كيس فأبقوهم وقتلوا الباقي قتلاً شنيعاً.. وعذبوهم في القتل من أول الليل إلى آخره.. ثم قطعوا رؤوسهم وحشوها تبنًا ووثقوها في مركب وأرسلوها إلى الإسكندرية وعدتهم ثلاثة وثمانون رأسًا وفيهم من غير جنسهم وأناس جربجية[1] ملتزمون واختيارية التجؤوا إليهم ورافقوهم في الحضور وبعثوا من يوصلهم إلى إسلامبول[2].. وكتبوا في المراسلة أنهم حاربوهم وقاتلوهم وحاصروهم حتى أفنوهم واستأصلوهم ولم يبقوا منهم باقية وهذه الرؤوس رؤوس أعيانهم وأكابرهم.. فكان عُدة من قُتِلَ في هذه الحادثة من المعروفين المنصوبين مراد بك تابع عثمان بك حسن وقبطان بك تابع البرديسي وسليم بك الغريبة وأحمد بك الدمياطي وعلي بك تابع خليل بك ونحو خمسة وعشرين من مماليكهم وأتباعهم ونجا حسن بك شبكة واثنان معه دون أتباعه وباقيهم أشخاص مجهولة فيهم فرنساوية وأرنؤدية ولم يتفق للأمراء المصرية أقبح ولا أشنع من هذه الحادثة وربط الله على قلوبهم وأعمى أبصارهم وغلّ أيديهم..)

❖❖❖

وإذا أمسكنا بنفس الخيط.. وقفزنا زمنياً لنرى كيف استمر محمد علي على نفس النهج في تأديب الخارجين عليه.. سنتوقف هذه المرة عند تأديبه لطائفة الأروام بالإسكندرية.. ويقول الرافعي واصفاً ذلك:

(في منتصف شهر ذي الحجة البادئ بيوم الجمعة سنة ١٢٣٦ هـ - ٣٠ أغسطس ١٨٢١ سافر الباشا إلى الإسكندرية لداعي حركة الأروام وعصيانهم وخروجهم عن الذمة ووقوفهم بمراكب كثيرة العدد بالبحر وقطعهم الطريق على المسافرين واستئصالهم بالذبح والقتل حتى أنهم أخذوا المراكب الخارجة من

(١) جمع جريجي.. أي يوناني.

(٢) أحياناً تُكتب إسلامبول.. وأحياناً أستانبول.. أو أسطانبول.. وفي كل الأحوال معناها واحد وهي عاصمة الخلافة العثمانية.

DAYS Of MOHAMMED ALi

إسلامبول وفيها قاضي العسكر المتولي قضاء مصر ومن بها أيضًا من السُفار[1] والحُجاج فقتلوهم ذبحًا عن آخرهم ومعهم القاضي وحريمه وبناته وجواريه وغير ذلك وشاع ذلك بالنواحي وانقطعت السُبل فنزل الباشا إلى الإسكندرية وشرع في تشهيل[2] مراكب مساعدة للدونانمة[3] السلطانية وبعد سفر الباشا سافر أيضًا إبراهيم باشا إلى ناحية قبلي قاصدًا بلاد النوبة)..

❖❖❖

(١) أي المسافرين.

(٢) أي تجهيز.. وإرسال.

(٣) أي التجريدة.. أو الحملة السلطانية.

بورتريه

«محمد علي» بريشة الكلمات

الخلاف حول تاريخ ولايته

هناك خلافٌ بين المؤرخين حول تحديد موعد تولي مجمد على ولاية مصر.. البعض يقول أنه عُينَ والياً على مصر في ١٧ مايو ١٨٠٥ والبعض الآخر يقول إن ذلك كان في ٩ يوليو ١٨٠٥.

لكن المؤكد أن الخلاف فقط في يوم وشهر توليه الحكم.. لكن السنة لا خلاف فيها..

كان محمد علي يتحدث اللغة التركية.. إنما كانت لغته الأساسية في الحديث هي اللغة الألبانية.

وكان والده تاجر دخان مات وابنه في سنٍ صغير.. وتربى محمد علي في كنف خاله الذي ساعده كثيراً.. سواء في إلحاقه بالجيش.. وسرعة ترقيه به.. أو في تزويجه من حفيدته المُطلقة «أمينة نوصرتلي» التي سنتحدث عنها لاحقاً.

وكانت المرة الأولى التي يزور فيها محمد علي مصر سنة ١٧٩٩ أي بعد وصول الحملة الفرنسية لمصر بعام.. وكان ضمن القوات اللي أرسلتها الدولة العثمانية لمحاربة نابليون بونابرت.

وحكم «محمد علي» مصر حتى يوم وفاته في ٢ شوال ١٢٦٤هـ الموافق الأول من سبتمبر ١٨٤٨

وتولى «محمد علي» حكم مصر كأول حاكم في تاريخها الحديث يتولى الحكم بناءاً على إرادة ورغبة الشعب بالشكل الذي سنراه لاحقاً..

والآن نتحدث عن..

DAYS Of MOHAMMED ALi

من هو «محمد علي»؟

ولد «محمد علي» بمدينة «قولة» بمواني مقدونيا في ١٧٦٩ وهو كردي الأصل تعود جذوره إلى مدينة «ديار بكر» عاصمة كردستان الشمالية[١]..

وفي سن الشباب انخرط «محمد علي» في سلك الجندية..

ثم تزوج من «أمينة نوصرتلي» وكانت مطلقة ذات ثروة واسعة وهي التي أنجبت له إبراهيم.. و«طوسون».. وإسماعيل.. ويقال أن إبراهيم ليس ابنه.. ولكنه ابن زوجته من زواج سابق..

تاجر دخان

وتفرغ لتجارة الدخان - وهي تجارة أبيه كما قلنا من قبل - فربح منها وأثرى كثيراً.

عودته للعسكرية

ثم عاد «محمد علي» إلى سلك العسكرية عندما أغار نابليون على مصر التي كانت في هذا التوقيت خاضعةً للإمبراطورية العثمانية.. ودمر نابليون جيش المماليك في مصر.. وفشلوا في الدفاع عنها.. فأمر الباب العالي في الآستانة بتعبئة الجيوش لمحاربة الفرنسيين في مصر فانضم محمد علي إلى الحملة.. كمعاون

(١) بحسب شهادة حفيده الأمير محمد علي ولي عهد الملك فاروق عام ١٩٤٩ وجاء ذلك في مقال بعنوان «ولي العهد حدثني عن ولي النعم...» نشر في مجلة «المصور» المصرية يوم ٢٥ نوفمبر عام ١٩٤٩ بمناسبة مرور مئة عام على وفاة محمد علي باشا.. من خلال حوار صحفي أجراه الأديب الكبير عباس محمود العقاد مع ولي عهد مصر آنذاك الأمير محمد علي.. وأكد ولي العهد على كُردية الأسرة العلوية «أسرة محمد علي».. وأن الشائع خطئاً هو أن الأسرة العلوية نشأت على مقربة من قولة في بلاد الأرناؤوط «ألبانيا».. ولكن ما اطلعت عليه في كتاب ألفه قاضي مصر في عهد محمد علي أن أصل الأسرة من ديار بكر في بلاد الكرد.. ومنه انتقل والد محمد علي وإخوانه إلى قولة.. ثم انتقل أحد عميه إلى الأستانة.. ورحل عمه الثاني في طلب التجارة.. وبقي والد محمد علي في قوله.. وقد عزز هذه الرواية ما سمعناه منقولا عن الأمير حليم «أحد أحفاد محمد علي» أنه كان يرجع بنشأة الأسرة إلى ديار بكر في بلاد الأكراد».

لرئيس كتيبة «قولة» مع جيش «القبطان حسين باشا» الذي كان متولياً مهمة إجلاء الفرنسيين.. وقد صل «محمد علي» إلى مصر في مارس ١٨٠١.

الوصول للقمة

استمر الاحتلال الفرنسي لمصر ثلاث سنوات.. وانتهي بالفشل بسبب دعم شدة بأس المقاومة الشعبية المصرية للوجود الفرنسي من ناحية.. ومن ناحيةٍ أخرى بسبب دعم الإنجليز للعثمانيين في حملتهم إلى مصر سنة ١٨٠١.

وبعد خروج الفرنسيين تحطمت قوة المماليك تماماً.. وبسبب ضعف وتفكك العثمانيين دخلت مصر في مرحلة من الفراغ السياسي استمرت حتى سنة ١٨٠٥.

ولم ينتهي الأمر إلا باختيار المصريين لمحمد علي ليكون والياً عليهم بعد ما أثبت قدرته على إقناعهم بذلك.

ولم يجد السلطان العثماني «سليم الثالث»[1] أحداً غيره يستطيع السيطرة على الأمور في مصر فاضطر في النهاية للخضوع لرغبة المصريين.. واعترف بمحمد علي والياً على مصر في ١٧ مايو سنة ١٨٠٥.

شدة طموحه العسكري

عُرِفَ عن «محمد علي» شدة طموحه العسكري.. ورغبته التوسعية.. وإنشاء إمبراطورية مصرية يحكم من خلالها ما استطاع من الدول التي يمكنه بسط سلطانه عليها.. ونجح في ذلك إلى حدٍ كبير.. وكان يؤمن بنفس أفكار «نابليون» من كون مصر مفتاح الشرق.. ومن يسيطر عليها.. يستطيع أن يحكم العالم.. ولا غرابة في شدة إيمان كلٍ منهما بنفس الفكر.. والأهم أن «محمد علي» كان يقدر تماماً نابليون بالشكل التالي..

(١) سليم الثالث بن مصطفي الثالث «١١٧٥ هـ / ١٧٦١م - ١٢٢٢ هـ / ١٨٠٨م» هو أحد خلفاء الدولة العثمانية.. تولى السلطة بعد وفاة عمه عبد الحميد الأول سنة ١٢٠٣ هـ وكانت المعارك الحربية مستمرة.. فأعطى وقته وجهده للقتال.. وكان من أصحاب الهمة العالية والمصلحين في عصره.

DAYS Of MOHAMMED Ali

بين «محمد علي» ونابليون بونابرت[1]

كان «محمد علي» شديد الإعجاب بشخصية «نابليون بونابرت» للدرجة التي يمكننا معها أن نقول أن كان بالنسبة له بمثابة «مثلاً أعلى» خاصةً باعتباره قائداً عسكرياً.. وكان يفخر دائماً بأنه وُلِدَ في نفس السنة التي وُلِدَ فيها نابليون.. أي عام١٧٦٩.

وحول هذا الطرح يقول العالم والمؤرخ الفرنسي «جي فالتون»[2] أن «محمد علي» من شدة إعجابه ببونابرت فكر في وضع خطة لتهريب بونابرت عقب هزيمته في «معركة واترللو» ونفيه إلي جزيرة سانت هيلانة.. هذا ما أكده..

---

(١) نابليون بونابرت كما هو معروف قائد عسكري وحاكم وإمبراطور فرنسا.. وملك إيطاليا.. عاش أواخر القرن الثامن عشر وحتى أوائل عقد العشرينيات من القرن التاسع عشر.. حكم فرنسا في أواخر القرن الثامن عشر بصفته قنصلاً عامًا.. ثم بصفته إمبراطورًا في العقد الأول من القرن التاسع عشر.. بزغ نجمه خلال الجمهورية الفرنسية الأولى.. وفي سنة ١٧٩٩ قام بعزل حكومة الإدارة وأنشأ بدلاً منها حكومة مؤلفة من ٣ قناصل.. وتقلّد هو بنفسه منصب القنصل الأول.. وبعد ٥ سنوات أعلنه مجلس الشيوخ الفرنسي إمبراطورًا.. خاضت الإمبراطورية الفرنسية في عهده نزاعات عدّة خلال العقد الأول من القرن التاسع عشر.. عُرفت باسم الحروب النابليونية.. ودخلت فيها جميع القوى العظمى في أوروبا.. وأحرزت فرنسا انتصارات باهرة على جميع الدول التي قاتلتها.. وجعلت لنفسها مركزًا رئيسيًا في أوروبا القارية.. ومدّت أصابعها في شؤون جميع الدول الأوروبية تقريبًا.. حيث قام بونابرت بتوسيع نطاق التدخل الفرنسي في المسائل السياسية الأوروبية عن طريق خلق تحالفات مع بعض الدول.. وتنصيب بعض أقاربه وأصدقائه على عروش الدول الأخرى.. شكّل الغزو الفرنسي لروسيا سنة ١٨١٢ نقطة تحول في حظوظ بونابرت.. حيث أصيب الجيش الفرنسي خلال الحملة بأضرار وخسائر بشرية ومادية جسيمة.. لم تُمكنه من النهوض به مرة أخرى.. وفي سنة ١٨١٣ هزمت قوّات الائتلاف السادس الجيش الفرنسي في معركة الأمم.. وفي السنة اللاحقة اجتاحت هذه القوّات فرنسا ودخلت العاصمة باريس.. وأجبرت نابليون على التنازل عن العرش.. ونفوه إلى جزيرة ألبا.. هرب بونابرت من منفاه بعد أقل من سنة.. وعاد ليتربع على عرش فرنسا.. وحاول مقاومة الحلفاء واستعادة مجده السابق.. لكنهم هزموه شر هزيمة في معركة واترلو خلال شهر يونيو من عام بعدها استسلم بونابرت للبريطانيين الذين نفوه إلى جزيرة القديسة هيلانة.. حيث أمضى السنوات الست الأخيرة من حياته. أظهر تشريح جثة نابليون أن وفاته جاءت كنتيجة لإصابته بسرطان المعدة.. على الرغم من أن كثيرًا من العلماء يقولون بأن الوفاة جاءت بسبب التسمم بالزرنيخ.

(٢) هو حفيد بيسون بك الذي كان يعمل قائداً للبحرية المصرية في عهد محمد علي.. وذكر أقواله المُشارُ إليها في محاضرة ألقاها في الثمانينيات من القرن الماضي بالمجمع العلمي الفرنسي ..

خطة «محمد علي» لتهريب نابليون

وقال المؤرخ الفرنسي أن «محمد علي» كان يرغب في تكليف سفينة دنمركية لخداع الإنجليز وإقناعهم بإحضار نابليون إلي الإسكندرية في عام١٨١٩وأضاف أن «محمد علي» أعطي أوامره إلي «بيسون بك» لتولي قيادة هذه المهمة..

ونابليون يرفض

وقال أن السفينة الدنمركية وصلت بالفعل إلي سانت هيلانة.. ولكن نابليون رفض الصعود إليها.. لأنه شك في وجود مؤامرة إنجليزية لقتله.

وأضاف العالم الفرنسي أن «محمد علي» كان علي وشك وضع خطط أخري بتشجيع من سليمان باشا قائد الجيش و«إبراهيم باشا».. ومنها خطف نابليون قسراً أو بحث مقايضته مع الإنجليز.. إلا أن انشغال «محمد علي» بالحروب التي خاضها.. ثم وفاة نابليون عام ١٨٢٢ أحبطت هذه الخطط.

ذكاء «محمد علي»

نجح «محمد علي» بذكائه الشديد في استقطاب كل أبناء الشعب المصري إلى جانبه للمناداة والمطالبة به والياً على مصر.. وبل ذكاؤه شدة تألقه عندما نجح بشكل أكبر في استمالة أقباط مصر.. فبعد خروج الحملة الفرنسية من مصر.. تحرك المصريون بايجابية لتأييد «محمد علي» ونصرته علي الإنجليز بقيادة «فريزر» والمماليك أيضاً.. معلنين رفضهم القاطع لفرمان السلطان العثماني بعزل

«محمد علي» وأكدوا تمسكهم بولايته.. حتى الأقباط الذين كانوا يدفعون الجزية بمقتضي معاهدة نابليون الأولي سنة ٦٤١ باعتبارهم شاركوا في وصول «محمد علي» لحكم مصر.. فكان المعلم جرجس الجوهري كبير المباشرين الأقباط يشارك بفعالية في اجتماعات زعماء ونواب الأمة في بيت عمر مكرم.. من أجل تنفيذ قرار الشعب بعزل «خورشيد باشا» وتأكيد تولية «محمد علي» الحكم.. وكذلك مشاركة المسيحيين ضد المماليك ثم ضد حملة فريزر الإنجليزية.. وبعد حصول «محمد علي» علي فرمان بتوليه حكم مصر عام ١٨٠٥ قام بتعيين المعلم غالي أبو طاقية الذي عمل بمثابة وزير للمالية.. ويقال إنه هو الذي أوصي بإلغاء نظام الالتزام.. ووضع نظام الضريبة الثابتة علي الأرض الزراعية بعد تقسيمها إلي درجات حسب جودتها.. كما عاونه المعلم باسيليوس.. فكان غالي بمثابة اليد اليمني لـ «محمد علي» بينما باسيليوس اليد الأخرى لتنفيذ أوامره بكل دقة وأمانة..

مشواره في مصر من العسكرية حتى الولاية

- وصل «محمد علي» إلى مصر في مارس ١٨٠١ كمعاون لرئيس كتيبة «قولة» مع جيش «القبطان حسين باشا» الذي جاء لإجلاء الفرنسيين..
- بقى «محمد علي» في مصر بعد خروج الفرنسيين منها..
- نظراً لتميزه فقد رُقّى إلى عدة مناصب إلى أن خرج الفرنسيون فأصبح من الرجال المقربين للوالي الجديد «خسرو باشا»..
- ثم أصبح نائباً للسلطان العثماني..
- ثم أصبح والياً على مصر في عام ١٨٠٥م بمساعدة الزعيم الشعبي المصري آنذاك «عمر مكرم» ممن قادوا مهمة توليته..
- وفي مايو ١٨٠٥ وصل إلى كرسي والي مصر بفضل الشيوخ المصرية..
- وفي يوليو من نفس السنة وصل فرمان الباب العالي بتوليته مصر..
- قضى على المماليك في مذبحة القلعة الشهيرة ١٨١١..

- بدأ «محمد علي» في إنشاء جيش مصري حديث ولهذا قرر استخدام كولونيل سابق في الجيش الفرنسي وهو من الفرنسيين الذين مكثوا في مصر ولم يغادروها إلى فرنسا وهذا الكولونيل اسمه سيف وقد اعتنق الإسلام فيما بعد حتى يكون له صورة إسلامية ويستطيع المسلمون الوثوق فيه ودرب الكولونيل سيف الجيش المصري على أحدث النظم الأوروبية ومما يذكر أن الكولونيل سيف غير اسمه إلى سليمان وأعطاه «محمد علي» البكوية.. ومن بعده منحه «إبراهيم باشا» ابن محمد علي لقب الباشاوية.. وما زالت مقبرته حتى يومنا هذا قائمة في مصر القديمة.
- أرسل جيشه إلى الحجاز فاستولى عليها ثم استولى على النوبة وعلى جزيرة كريت ثم على فلسطين والشام..
- أدت هذه الانتصارات وهذا التفوق العسكري إلى وقوف الدولة العثمانية وبعض الدول الأوروبية ذات المصالح ضد طموح وأطماع «محمد علي» التوسعية.. فاجتمعوا في لندن في يوليو ١٨٤٠ ووقعوا المعاهدة التي مُنِحَ بمقتضاها «محمد علي» رتبة «نائب الملك على مصر» وأن تكون مصر بحدودها القديمة وراثية في أسرة «محمد علي» للأكبر سناً من أولاده أو أحفاده.. على أن تكون مصر جزءاً من الدولة العثمانية وأن تدفع الجزية سنوياً للسلطان وألا يزيد جيشها عن ثمانية عشر ألفاً وألا تبنى سفناً حربية.
- وفي فبراير ١٨٤١ أصدر الباب العالي في الآستانة فرماناً بجعل مصر وراثية في أسرة «محمد علي».. ونص الفرمان على أن تكون مصر جزءاً من الدولة العثمانية تسري فيها قوانين وفرمانات والمعاهدات التي تبرمها الدولة العثمانية.. وأن يجرى كل ما شيء فيها باسم السلطان العثماني.. وأن تدفع مصر جزية سنوية يحددها السلطان.

DAYS Of MOHAMMED ALi

- تم تعديل الفرمان السابق بفرمان آخر بحيث يصبح حق الوراثة لحكم أسرة «محمد علي» بحيث يتولى المملكة الكبر سناً من أولاد «محمد علي» وأحفاده الذكور.. وحُددت الجزية بربع إيرادات مصر ثم أعيد تعديلها إلى ٤٠٠ ألف جنيه.
- منذ ذلك التاريخ يمكن القول بأن مصر أصبحت تتمتع باستقلال داخلي وثبات واستقرار.
- تنازل «محمد علي» عن سلطاته لابنه «إبراهيم باشا» في سبتمبر عام ١٨٤٨مُرغماً حسب أصح الأقوال حيث يُقال أنه قد أصيب بالخرف في أواخر أيامه.. ومات بقصر التين بالإسكندرية في أغسطس ١٨٤٩ وتم دفنه بالمسجد الذي يحمل اسمه بالقلعة بالقاهرة.. وعينت الدولة العثمانية مكانه "عباس الأول" عام ١٨٤٨.

سبب الوفاة

وتفسر بعض المصادر جنون محمد علي بتناوله جرعات نترات الفضة[١] أعطاها له أطباء أوروبيون لعلاجه من الدوسنتاريا.. بينما فسر آخرون جنونه بتناوله دواء لتقوية ألباه [٢] كان يتعاطاه بعدما أهدته ابنته جارية جديدة.

هذا هو ملخص مشوار «محمد علي» في حكم مصر منذ أن نزل إليها.. حتى وافته بها المنية.. فماذا عن أيامه فيها.. هذا ما سنقرئه في الصفحات والفصول القادمة بالتفصيل..

❖❖❖

(١) نترات الفضة هي دواء مضاد للعدوى قوي يُستعمل كقابض وكاوي ومطهر.. امتصاصه سيء.. حتى عندما يطبق على الأغشية المخاطية.. والصيغة الكيميائية لنترات الفضة هي AgNO3 وهي تذوب بسهولة في الماء.. وتحرق الجلد.. ويمكن أن تسبب تسمما خطيراً.. وقد تسبب الموت في حالة الابتلاع.

(٢) أي لتقوية القدرة الجنسية.